

الأدب الرفيع في التعبير القرآني البديع
in the wonderful Quranic expression High Politeness
د. سهام داوي
جامعة الجزائر. 1. كلية العلوم الإسلامية، مخبر الشريعة- الجزائر.

ملخص:

التعبير القرآني درجة راقية ومتميزة في الأسلوب والبلاغة، سحر العرب أصحاب البيان، وفتح أمامهم ميدانا جديدا في جمالية الشكل، ودقة العبارة، فنجد لكل مقام مقالا مناسبا له، ويظهر التأدب الرفيع في القول تهذبا للألفاظ، وصونا للمشاعر، وهذا باعث هذه الدراسة التي هدفنا من خلالها إلى بيان شواهد قرآنية على التأدب في القول. وكان من نتيجة هذه الدراسة أنّ القرآن يحرص على التأدب مع الله في الخطاب المتعلق به، والكناية عما تعلق بالأمور الجنسية، والتعريض في مقامات تأنيب الأشخاص، والتميز رفعا للحرَج، وليس أرقى من القرآن الكريم فيه. الكلمات المفتاحية: الأدب . الكناية . التعريض . التعبير . القرآن .

Abstract:

Quranic expression is an elegant degree in style and rhetoric. so we find for each denominator an appropriate article for him, and the high discipline in saying is a reflection of the words and the preservation of feelings. During it to indicate Quranic evidence of politeness in saying.

The result of this study was that the Qur'an is keen to be polite with God in the discourse related to it, and metonymy in relation to sexual matters, exposure in the shrines of reprimanding people, and coding to raise embarrassment, and not superior to the Holy Quran in it.

Keywords: Politeness –Metonymy– Concealment– Expression –The Quran

المؤلف المرسل: سهام داوي

الحمد لله الذي أنزل علينا كتابا معجزا، وجعله نبراسا نهتدي به إلى يوم الدين،
والصلاة والسلام على المبلِّغ الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، وبعد:

لقد جاء القرآن الكريم على أبلغ لغة، وأجمل عرض، وأعمق معنى، فدعا إلى
التوحيد، وشرّع من الأحكام ما تستقيم به حياة الناس ومعاملاتهم، وقصّ من أحوال
السابقين ما تقوم به العبرة، وتنضج به الفكرة، وكان في كلّ موضوعاته شاملا، كاملا،
سليم العبارة، لطيف الخطاب، بما يحفظ له قدسيته، ويجمع حوله ولا ينقّر.

ولقد طال بالباحثين المقال وتشعب بخصوص إعجاز القرآن البياني، وبلاغته
الراقية، ووقفوا منه على درر نفيسة في الاستدلال، وشواهد وافية للردّ على كلّ سؤال،
حيث اجتهد المفسّرون، وبيّنوا معاني الألفاظ، ومقاصد التراكيب، وهيأوا مادة خامّة لمن
يتخصّص أو يستزيد، فكان ذلك نورا لنا نهتدي به عن ومض الفكرة، وعقد العزم على
فتح صفحة متجدّدة من صفحات البلاغة القرآنية، استلهاها واستعلاما.

وإنّ للتعبير القرآني من الخصوصيات ما لا يوجد في غيره، مراعاة للمقامات،
وآساقا مع السياقات، وتراوحا بين الشدّة واللين حسب الدواعي والاستجابات، كذلك
من سمات التعبير القرآني تجنّب ما لا يليق ذكره مع الوفاء بإيصال المعنى، فلا توجد في
القرآن الكريم لفظة واحدة تؤذي السمع، أو تخدش الحياء، "وتحقيقا لهذه الصفة .
انتقاء الألفاظ وعذوبتها في القرآن . فإنّ القرآن يعمد إلى تهذيب ما قد يُعاب من اللفظ
إذا دعا داعٍ بلاغي لوروده فيه"¹

وعلى هذا الأساس انطلقت في توسيع فكري حول خصوصية تعبيرية قرآنية لا
تضاهي، متعلّقة بجانب تهذيب الألفاظ، وتمير المعاني بعيدا عن الابتذال اللفظي،
والأذى النفسي، مراعاة للقداسة فيما تعلّق بالذات العليّة، والحشمة في سياقات
العلاقة الجنسية، والتهذّب في توجيه العتاب أو التوبيخ أو السخرية لمن يستحقّها من
المخطئين سهوا أو العصاة إصرارا أو الكفار جحودا، واخترت لدراستي عنوان :

¹ - المطعني، عبد العظيم، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ص246.

الأدب الرفيع في التعبير القرآني البديع

"الأدب الرفيع في التعبير القرآني البديع"

فالقُرآن الكريم قد أعطانا دروسا تربوية، وأخلاقية عن طريق التوجيه أمرا ونهيا، كما دلّنا على طرق التأدّب في الخطاب انتقاء لمحاسن الكلام، وتجنّباً للمستفحش منه، عبر ظواهر عدّة منها التأدّب في النسبة، وتهذيب الألفاظ بالعدول عن بعضها إلى غيره، والتكنية عمّا يقع بالإفصاح عنه الحرج، تعريضا وترميذا، وكلّ ذلك خدمة للإشكالية الآتية:

ما هي الأساليب القرآنية التي خدمت الخطاب المتهذّب فيما يُستحيا من ذكره، وما يُستشنع الإفصاح فيه؟

وتتعلّق بهذه الإشكالية جملة من الفرضيات والتساؤلات، منها:
إنّ القرآن الكريم باعتباره نصّا مقدّسا يختلف في تناول بعض القضايا عن غيره من النصوص.

إنّ في الانتقاء اللفظي في القرآن الكريم لطائف بلاغية لا تضاهي، ولا يُعلى عليها.
القضايا الأكثر حساسية في القرآن الكريم هي قضايا العقيدة والعلاقات الجنسية، فما الذي ناسبها من الألفاظ والتراكيب؟
توسّع القرآن الكريم كثيرا بالكناية تجسيدا للأدب الرفيع، وتجيلا للفن القول البديع، فما الأساليب التي اعتمدها في ذلك؟

هذه وغيرها فرضيات وتساؤلات ثارت في نفسي وأنا أركن للموضوع، وأجد في نفسي الرغبة في التوسّع فيها في نطاق ما يفي بحجم مقالة علمية. وقد سعيت لتثبيتها، والإجابة عليها اعتمادا على المنهج الاستقرائي تتبعا للشواهد القرآنية في ذلك، مشفوعا بالمنهج التحليلي تدقيقا في الجماليات البيانية، واللطائف البلاغية التي يحفل بها، فكان لي استهلال مع الأدب الرفيع المتعلق بنسبة الأفعال بين الله وعباده، والعدول البديع من ألفاظ الجماع الصريحة إلى مرادفاتهما الأكثر تهذيبا، وما حرص عليه القرآن الكريم من التعريض والترميز رفعا للحرج. وكلّ ذلك باستقراء موضوعي للقرآن الكريم استنتاجا لما أمكن من الشواهد بالنظر إلى طرق الصياغة، وبقرائن الأحوال ومقتضيات المقامات.

أولاً. تطويع اللفظ تأدبا مع الله تعالى

الخطاب القرآني المتعلق بأفعال الله تعالى، وأفعال عباده ذو حدود لا تتجاوز، وآداب في غاية الحساسية، فللربوبية مقتضياتها، وللألوهية خصوصياتها، على نحو لا تسلم معه التسامح في تركيب الخطاب، ومن ذلك قوله تعالى: "الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ" (الشعراء 78-81)

في هذه الآيات القرآنية إقرار نبوي وبشري بالافتقار إلى الله تعالى، الذي بيده الخلق والهداية والإطعام والإسقاء وغفران الخطايا، لكن ثمة عبارة دقيقة في هذا السياق هي (وإذا مرضتُ)، فاقترضى التأدب مع الله تعالى أن يسندها لنفسه وليس لله تعالى وإن كان الأمراض بقدرته، وهذا منتهى التأدب مع الله تعالى.

كذلك في قوله تعالى بخصوص الهداية: "فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُنْتَدُونَ" (الأعراف 30)، فنسب لنفسه الهداية ولم ينسب الإضلال، حيث جاء في تفسير التحرير والتنوير: "ومعنى (حق) عليهم الضلالة) ثبتت لهم الضلالة ولزموها، ولم يقلعوا عنها، وذلك أنَّ المخاطبين كانوا مشركين كلهم، فلما أمروا بأن يعبدوا الله مخلصين افترقوا فريقين: فريقا هداه الله إلى التوحيد، وفريقا لازم الشرك والضلالة، فلم يطرأ عليهم حال جديد، وبذلك يظهر حسن موقع لفظ (حق) هنا دون أن يقال أضله الله، لأنَّ ضلالهم قديم مستمر اكتسبوه لأنفسهم"²

وفي قوله عز وجل: "فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ" (النحل 36) معنى قريب من ذلك، واختلاف الأسلوب متعلق باختلاف الأحوال.

ثانياً: التعريض بما يستحيا من الإفصاح عنه

1. الكناية :

² - ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، 90/8.

الأدب الرفيع في التعبير القرآني البديع

الكناية فنّ من فنون القول التي يحفل بها القرآن الكريم، ويتوسّع نطاقها بالنظر إلى أساليبها المتعدّدة، وطرقها المتنوّعة، "فالكناية تنقسم إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة، ومساق الحديث يحسر لك اللثام عن ذلك"³، وكفينا من ذلك ما تعلّق بمحدّد هذه الدراسة المتعلّقة بالأدب القرآني في انتقاء الألفاظ التي لا تخدش حياء، ولا توغر صدرا، ليكون التعريف الذي نركن إليه لهذا الفنّ على النحو الآتي:

الكناية في اللغة:

(كُنِيَ) في المعجم اللغوي تدلّ على الكلام بغير ما جرت العادة على الاستدلال به، قال الفراهيدي (ت170هـ): "كُنِيَ فلان يَكْنِي عن اسم كذا إذا تكلم بغيره ممّا يُستدلّ به عليه، نحو: الجماع، والغائط، والرفث، ونحوه"⁴ ويتوسّع ذلك من مجرد استبدال اللفظ باللفظ إلى استبدال اللفظ بالعبارة الدالة في تأدّب.

الكناية في الاصطلاح:

تعدّدت التعريفات المتعلّقة بالكناية بتعدّد أساليبها وأوجهها، ومن جهود القدامى إلى إسهامات المتأخّرين كمّ كبير في هذا الصدد، يحوم حول التعريف الجامع المانع، ويظهر الجانب المرغوب طيّا لما لا يقصد إليه صاحب التعريف، فنجد النحويين يستعيرون المصطلح لعلامة المضمّر من الأسماء مثلا، بينما ميدانها الرحب هو البلاغة بما يُستعار فيها للمعنى من لفظ وتركيب غير معهود، توجّهه القرينة الدالة في سياق الكلام ومقامه. جاء في (العقد الفريد): "ومن أحسن الكناية اللطيفة التكنية عن المعنى الذي يقبح ظاهره"⁵، وهذا هو الغرض الأسى لهذا الأسلوب البلاغي، توخيا لحسن الكلام بنقي اللفظ ومهذّبه، وإلى ذلك ذهب (المبرّد) في تعريفها، فالكناية عنده هي: "الرغبة عن

³ - السكاكي، مفتاح العلوم، ص190.

⁴ - كتاب العين، مادة (كني)، 411/5.

⁵ - ابن عبد ربه، العقد الفريد، 461/2.

اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدلّ على معناه من غيره"⁶ وهي بذلك مقصودة لتجنّب ما يستيح ذكره من الألفاظ.

ومن شواهد ذلك قوله تعالى: "فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ" (الرحمن 56)، فعرض الصفة مركّبة بدل صفى العفاف المفردة، ولم يطلق العفاف في القرآن الكريم بلفظ مباشر، بل جاء ذكره تكنيئةً بعبارة لطيفة راقية لم يُسبق إليها، حيث يطلق تعالى عليهن (قاصرات الطرف) ، يقول "أبو هلال العسكري": "وقصور الطرف في الأصل موضوع للعفاف على جهة التواضع والأرداف، وذلك أنّ المرأة إذا عفت قصرت طرفها على زوجها، فكان قصور الطرف ردفاً للعفاف، والعفاف ردف وتابع لقصور الطرف"⁷، وبذلك تحقّق وصف العفاف بعبارة فريدة، فكلّ من عفت غضبت الطرف عن المطموح إليه، ولو استعمل القرآن لفظ العفيفات لما وفي بمعنى الهيئة الراضية القانعة التي لا تمتدّ الرغبة فيها إلى غير الحلال.

وفي التكنية على قضاء الحاجة شيء من هذا الأدب، حيث يقول تعالى: "أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ" (النساء 43)، فالغائط المقصود هنا هو حاجة ذي البطن، والغائط كالوادي يحجب الأشياء، وذكره هنا تعبير عن قضاء الحاجة في الخلوة والستر، حيث يكتفي بذكر المكان تدليلاً على الفعل، كناية عمّا تمّ فيه، ورقياً بأدب الخطاب.

2. العدول اللفظي:

تشمل الكناية كما ذكرنا أساليب شتى للتعبير عن المعنى بطريقة غير مباشرة، أو بعبارة غير متطابقة مع المعهود من الكلام، وفي طليعتها (العدول اللفظي) الذي يمليه الجنوح إلى تهذيب الكلام، أو رفع الحرج، والعدول عن اللفظ لا يعني إخفاءه، كما لا يتيح إبرازه وإظهاره لوجود ما يغني عنه مع تأدية معناه، "فاللفظ في الكناية ليس بالواضح وضوح المذكور صراحة، ولا هو بالخفي الذي أخفي عن عمد وقصد، فهو أشبه

⁶ - المبرّد، الكامل، ص19.

⁷ - كتاب الصناعتين، ص35.

الأدب الرفيع في التعبير القرآني البديع

ما يكون بالملكسو بثوب رقيق، بشفَّ عمّا تحته، فلا هو مستور، ولا هو عارٍ⁸، فهي في مدلولها اللغوي عدول عن لفظ إلى آخر دال عليه.

ودأب القرآن الكريم الجنوح إلى العدول فيما تخرج الحقيقة في التعبير عنه، وفي طليعة ذلك ما ذكره القرآن الكريم عن الجماع في سياقات تشريعية، حيث عدل عنه إلى ألفاظ تحمل الدلالة والمعنى، وترفع الحرج عن المؤمنين، وهي:

1. الرفث: وجاء في قوله تعالى: " أَجَلَ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَّامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ" (البقرة 187)، والرفث هو مقدّمات الجماع من تقبيل ومداعبة، وقد تجنّب القرآن الكريم التصريح بذلك حفظاً لقدسية النصّ، ورعاية لما يقتدى به من آداب الحديث.

2. الملامسة: وذلك في قوله تعالى: " أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا" (النساء 43)، وتنسحب الدلالة على المباشرة، أو الجماع.

3. المباشرة: في قوله تعالى: " فَإِنَّ بَاشِرُوهُمْ وَأَنْبَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ" (البقرة 187)، فالمباشرة تعني الجماع، وهي في الاستعمال أليق.

4. التغشّي: في قوله تعالى: "فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ" (الأعراف 189)، فالمراد بالتغشية هنا الجماع بالإجماع مع تقدير محذوف في الكلام، إذ المقصود: فلما تدثّرهما لقضاء حاجته منها.. ويعطي اللفظ دقة أكبر لما يحمله من إحياء باللقاء الجنسي الأول، يوم فض غشاء البكارة، بدلالة السياق الذي ورد فيه، وهذا الفعل ليس لمجرد الشهوة، بل هدفه الإبقاء على النوع الإنساني.

5. الإفضاء: في قوله تعالى: "وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا" (النساء 21)، فعدل عن الجماع والإصابة من الزوجة إلى لفظ (الإفضاء)، وفي ذلك أدبٌ جمٌّ رفيع، وزيادة معنى عن مجرد الالتقاء الجسدي إلى الانسجام الروحي المؤدّي إلى طواعية الفعل. ويخدم هذا اللفظ السياق الذي ورد فيه، فهو سياق طلاق، وحرّي فيه التذكير بما كان من التلاقي، وفيه "إحياء التحوّل من حالة إلى حالة يذكّر القرآن بها الزوجين، التحوّل والانتقال من فردية الزوج بالإفضاء إلى فضاء الأسرة

⁸ - فياض، محمد جابر، الكناية، ص121.

الرحيب، أي التحوّل بالإفضاء من عالم الفرد المغلق على ذاته إلى عالم التواصل الأسري الذي هو فضاء إنساني يتجاوز فردية الإنسان ويسمو به حيث الطمأنينة والسكن والاستقرار"⁹

وإنما عدل القرآن الكريم عن اللفظ المعروف للعلاقة الجنسية بين الزوجين إلى ألفاظ أخرى تؤدي المعنى، رعاية للأدب، وتهذيباً للألفاظ. "وإذ لا يصرح القرآن بالفعل الجنسي فإنه يعمد باستبدال ألفاظ قبيحة فاحشة بألفاظ حسنة في التعبير عن المعنى المقصود، وبذلك يتجلى البعد التهذيبي الذي تنطوي عليه الكناية القرآنية الجنسية، فهي تتسامى وترفع عن التصريح بالألفاظ المفحشة التي تخدش الشعور، وتحط من الذوق الجمالي"¹⁰، فهو بهذا التلوين اللفظي يرتفع بهذه العلاقة إلى أفق كريم ينأى بها عن الصورة الحيوانية المبتذلة.

ثالثاً: رفع الحرج

الأخلاق سمة الدين الإسلامي، صيانة للمعاملات المادية، ورعاية للحقوق النفسية، فقد يقع الحرج في الكلام على المتكلم أو المخاطب، لذلك يحسن انتقاء الألفاظ التي ترفع هذا الحرج، في أدب رفيع ليس في غير القرآن الكريم ما يدانيه، حيث جاءت الألفاظ دقيقة صافية تؤدي المعنى، ولا تفضح ما حقه الستر، وكان من الأساليب البلاغية في ذلك:

1. التعريض:

التعريض في معناه البلاغي المتداول هو "أن تذكر شيئاً تدلّ به على شيء لم تذكره، وكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدلّ على الغرض"¹¹، وهو أسلوب يحمل من الرقي، والتأدّب الشيء الكثير، لم يغفل عنه القرآن الكريم، ويبرز هذا الأسلوب في القرآن الكريم خاصة

⁹ - الحياي، أحمد فتحي، الكناية في القرآن الكريم، ص87.

¹⁰ - الحياي، أحمد فتحي، الكناية في القرآن الكريم، ص79.

¹¹ - الزمخشري، الكشاف، 372/1.

الأدب الرفيع في التعبير القرآني البديع

باعتباره "أسلوباً مشوقاً من الأساليب البيانية يحتّمه الأدب القرآني، وتدعو إليه لغته المهدّبة، تقويماً للخلق، وصيانة للنفس الإنسانية من العبث والغيب والإثارة المؤذية"¹² ونقف في القرآن الكريم على آيات في هذا الغرض تحيل على المعنى بغير ألفاظه المعتادة، من قبيل ذمّ الكفار بأسلوب راقٍ مهذب يجعلهم يضعون أنفسهم في مواضعها تلقائياً، حيث يقول تعالى: "أَقَمْنَ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْنَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ" (الرعد 19)، فالمعنى الظاهر هو أَنَّ المؤمنين هم أصحاب القلوب الواعية التي تنتفع بما ترى، وهم أصحاب البصر والبصيرة، بعكس الكافرين العُمي عن الحقّ، الذين يوحى التعريض المعتمد على أسلوب القصر بأنهم لا يتذكّرون، ولا يتدبّرون الحقّ الذي أنزله الله.

وكذلك في قوله تعالى: "إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ" (فاطر 18)، "فالكناية التعريضية تنال من الكافرين على نحو خفي لطيف، وكاشفة من حالهم الذي تساوى عنده الإنذار وعدم الإنذار لفرط عنادهم وتصميمهم عليه جهلاً وضلالاً .. فهم لا يؤمنون ولا يخشون ربهم على خلاف المؤمنين الذين أفادوا ممّا أنعم الله عليهم من سمع وبصر وأفئدة، فأفادوا بالإنذار واستجابوا، فكان ديدنهم الخشية من الله ربهم"¹³

وفي حالة ما وقع لمريم عليها السلام في وضع الولد من دون زوج، كانت الدهشة عظيمة، وكان التعريض حاضراً بدل اتهامها المباشر، حيث ذُكر لها صلاح العائلة الذي ينسحب عادة على الفتاة، وذلك في قوله تعالى: "يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا" (مريم 28)، وهي آية كريمة حملت التعريض على الوجهين، فمن جهة قصد القوم كانوا يتهمونها بالفاحشة ويستنكرون اختلافها عن منبتها الصالح، ومن جهة الواقع فلن تكون إلاّ صالحة كابيها، وأمها، وأصول عائلتها.

¹² - الصغير، محمد حسين، أصول البيان العربي: رؤية بلاغية معاصرة، ص 119.

¹³ - الحياتي، أحمد فتحي، الكناية في القرآن، ص 247.

كذلك في سورة (التحريم) نجد شاهدا على ذلك في قوله تعالى: "وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ" (التحريم3)، فلم يسم المعنية، وهي على الراجح (حفصة) مكتفيا في الملام بذكر ما تستشعر به أنها المقصودة باللوم، يقول ابن عاشور: "و(بعض أزواجه) هي حفصة بنت عمر بن الخطاب، وعدل عن ذكر اسمها ترفعاً عن أن يكون القصد معرفة الأعيان، وإنما المراد العلم بمغزى القصة وما فيها مما يجتنب مثله أ، يقتدى به، وكذلك على تعيين المنبأة بالحديث وهي عائشة"¹⁴

وميزة أسلوب التعريض أنه موجز في التعبير عن المعاني التي يهدف إليها، يحقق معناه الأول ثم يصل إلى الغرض أو المعنى البعيد الذي يرمي إليه عن طريق المفهوم من السياق وقران الأحوال من غير أن يذكر الطرف المقصود عادة، أو الاتهام بالفحش من غير التوجه المباشر بالخطاب. ولذا يعدّ هذا الأسلوب وما سبقه من الأساليب البلاغية التي ذكرناها من الأساليب البيانية التي تفيض بالأدب القرآني تهدياً في تقويم الخلق، وصيانة النفس من العبث والإثارة المؤذية، وذلك جدير بإحداث الاستجابة النفسية، ورفع الحرج عند العتب أو التوبيخ.

2. الترميز:

التعبير الرمزي من أساليب القرآن الكريم، حيث يتخذ الرمز وسيلة مهذبة من وسائل التعبير الفني، دون تجريح، أو تقريع، أو لوم، أو إفصاح بما ينبو في السمع، وله شواهد كثيرة، نذكر بعضها على النحو الآتي:

قال تعالى: "مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ" (المائدة 75)، والمراد هنا ليس أكل الطعام في حد ذاته، وإنما ما يؤول إليه هذا الطعام من غائط وبول، لأنهما بسبب منه، تربية للمسلمين على رعاية الألفاظ، وانتقاء ما يسوغ الكلام به بين الناس بلا إسفاف ولا إساءة للمشاعر.

¹⁴ - ابن عاشور، التحرير والتنوير، 543/29.

وحتى ما جاء في القرآن الكريم من السخرية بالضالين المضلّين فكان بأسلوب متميّز متنوّع بين الخطاب المباشر، والتحذير المتواتر من نهج نهجهم، وأتباع خطواتهم، حيث يقدّم القرآن الكريم من خلال السخرية من أعداء الدين دروساً للمسلمين حتى لا يضعفوا مثلهم، فيكونوا من الهالكين. خاصة وأنّه سبحانه وتعالى قال على سبيل المشكلة: "وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ، اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ" (البقرة 14، 15)، يقول الزمخشري: "فإن قلت لا يجوز الاستهزاء على الله لأنه متعال عن القبيح والسخرية من باب العيب، فما معنى استهزائه بهم؟ قلت: معناه إنزال الهوان والحقارة بهم، لأنّ المستهزئ غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية بمن يهزأ به، وإدخال الهوان والحقارة، وقد كثر التهكم في كلام الله تعالى بالكفرة، والمراد به تحقير شأنهم وازدراء أمرهم، والدلالة على أنّ مذاهم حقيقة بأن يسخر منها الساخرون، ويضحك الضاحكون"¹⁵

¹⁵ - الزمخشري، الكشاف، 186/1.

وليس المراد بالسخرية في القرآن الكريم الهجاء، أو السبّ اللاذع، وإنما تهوين شأن المتطاولين، لذلك فلا تطال الشكل أو الخلق، وإنما هي أبعد من ذلك بكثير، تطال الخلق وفساد العقيدة، لذلك يعمّم القرآن الكريم عند ذكر الكافرين، وحتى وإن قصد شخصا منهم بعينه فلا يرفع له ذكرا في القرآن المتلو إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . اللهم إلا ما كان من شأن أبي لهب في سورة (المسد)، ومن ذلك قوله تعالى: "إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ" (الأنفال22)، فلفظ (الدواب) كما نعلم شامل لكل ما يدبّ على الأرض، ولكنّ المعنى هنا ينصرف إلى حيوانية الكافرين، حيث يلقي إطلاقه في هذا السياق ظلّ الهيمّة على الذين كفروا، بما عطّلوا من حواس الاستقبال المفضية إلى الإيمان.

وكذلك التوبيخ يختار له القرآن الكريم ترميزا يوصل المعنى، ولا ينزل عن اللفظ القرآني الراقي، وذلك في مثل قوله تعالى بشأن المنافقين المتخلفين عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ" (التوبة87)، والخوالف هي الأعمدة التي تكون في أواخر بيوت الحي، وفي هذا الترميز تقريع بليغ لهؤلاء الذين تخلفوا

. قائمة المراجع:

- ابن عاشور، محمد الطاهر، (1984م)، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر.
ابن عبد ربّه، (1956م)، العقد الفريد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، بيروت.
الحياني، أحمد فتحي رمضان (2014م)، الكناية في القرآن الكريم: موضوعاتها ودلالاتها البلاغية، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن.
الصغير، محمد حسين (1986م)، أصول البيان القرآني: دراسة بلاغية معاصرة، دار شئون الثقافية العامة، بغداد.
الفراهمدي، خليل بن أحمد، (1986م)، كتاب العين، دار الحرية للطباعة، بغداد.
العسكري، أبو هلال، (1952م)، كتاب الصناعتين، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
السكاكي، أبو يعقوب، (1937م)، مفتاح العلوم، مطبعة الحلبي، مصر.
الميزد، أبو العباس، (د.ت)، الكامل، دار نهضة مصر، القاهرة.
المطعني، عبد العظيم، (1992م)، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة.

الأدب الرفيع في التعبير القرآني البديع

عن الرجال المقاتلين، ورضوا بأن يبقوا في النساء والعجزة. وفي اللفظ المعبر عن حالهم تقريب دقيق للمكانة، وتوبيخ لم يحمل من ألفاظ الشتم والسب شيئاً. خاتمة:

نخرج من هذه الدراسة الموجزة ذات الشواهد المنتقاة من جملة كبيرة من الشواهد إلى أن قداسة النصّ القرآني، ورسالته الهادية لا يجتمعان مع المعاني المبتذلة، والألفاظ الخادشة للحياء، أو الجارحة للمشاعر، وتترتب نتيجة هذه الخصوصية التعبيرية الراقية للقرآن الكريم على النحو الآتي:

- . يهدين القرآن الكريم إلى الأدب الجمّ مع الله تعالى، تميزاً في الخطاب عن البشر.
- . في نسبة الأفعال بين الله تعالى والبشر لطائف بلاغية، وأسس عقدية تحول دون امتحان ما تعلّق بالذات الإلهية.
- . الكناية في مختلف أساليبها وسيلة مفضلة في القرآن الكريم لتبليغ المعاني في قوالب تركيبية ولفظية مهيبة لا تخدش حياء، ولا توغر صدرا.
- . العدول اللفظي أسلوب كنائي مميّز في مراعاة الآداب العامة، مع ملامسة المعاني في تناسق تام مع السياقات.
- . القرآن يسمو في لفظه ومعناه عمّا تجفوه النفوس، وتتقرّز منه، فيستعمل التعريض والتميز في الكثير من المواضع والمقامات ترفّعاً عن ألفاظ التوبيخ والسخرية المفحشة.
- وإذ خرجنا من الدراسة بهذه النتائج فإننا لا ندعي بها إلماماً، أو إحاطة لا تجارى، وإنما هي لبنة في صرح لا يفتأ يعلو بنيانه من بدايات جهود القدامى، إلى إسهامات المحدثين السائرة في اتجاهات شتى للبلاغة، مع تشوّف للمزيد الذي نوصي فيه الباحثين المتخصصين في البلاغة وعلوم القرآن بالعناية باللفظ القرآني ذي الدلالة المتجدّدة، والتموضع الدقيق ضمن التركيب، في ظلّ السياق الذي يجلّي معناه، ويرفد التفسير بأفاق جديدة، ومسائل مفيدة، تتراوح بين عجيب النظم الذي تنبّه له في السابقين (عبد القاهر الجرجاني)، وظاهرة التجاذب اللفظي التي تغري الراصدين للوحدة الموضوعية

د. سهام داوي

بعرض اللفظ على محور السورة، والخروج بعقود اللؤلؤ والجمان من جميع وحدات القرآن.